المؤتمر الدولي للغة العربية وآدابها بمكة المكرمة ـ فندق هيلتون مكة للمؤتمرات خلال الفترة ١٣-١٥ جمادى الآخرة ١٤٤١ هـ

اللّغة العربيّة ومُستوياتها

د. هديّة فايز مناور الرّشيدي

أستاذ مساعد/ قسم اللّغة العربيّة

جامعة حائل

Alrashidyhadiyah@gmail.com

المُلخّص:

لا تزال اللغة العربية لغة العلم، ولغة الثّقافة، ووسيلة التّواصل والتّعليم منذ القدم حتى العصر الحديث.

فللّغة العربيّة هي اللغة الرسميّة في أقطار الوطن العربي جميعها، وهي إحدى اللّغات السّتّة الرسميّة في مُنظّمة الأمم المتّحدة، ويتمّ الاحتفال باليوم العالمي للغةِ العربيّة في الثّامن عشر من ديسمبر من كلّ عام.

وقد حظيت مُستويات اللّغة باهتمام الباحثين بتاريخ طويل من البحث والمُناقشة، فيما يتعلّق بأصواتها، وتراكيبها، وصيغها، ومُفرادتها، ومن ثم معاني هذه المفردات؛ إذ خصّص الدّارسون لكلّ جانب من هذه الجوانب فرعًا من فروع علم اللّغة، أو مستوى معينا من البحث، ومن هنا ظهر في الحقل اللّغوي عدد من الفروع أو مُستويات البحث، وأهمها: علم الأصوات، والصّرف، والنّحو، والدّراسات المُعجميّة، وعلم المعنى.

وتبحث الدّراسة الرّاهنة في مستويات علوم العربيّة مُبيّنة دورها في أداء المعاني وتأثيرها البيانيّ في الدّرس اللّغوي العربيّ.

المقدّمة:

من المعروف أنّ (اللّحن) في قراءة القرآن الكريم كان الباعث الأول على تدوين اللّغة وجمعها، وعلى استنباط قواعد النّحو وتصنيفها[1]، لكنّ هذا الباعث لم يُحقّق العناية بالنّص القرآني وحده، بل حقّق هدفًا آخر هو الحفاظ على خصائص اللّغة العربيّة، ودَفَعَ إلى نشأة علوم جديدة عُرِفتْ بعد ذلك بعلوم اللّغة العربيّة، من نحو، وصرف، وبلاغة، ومعاجم.

وإنّ قصدًا ظهر في القرن الرابع الهجري نحو دراسة جديدة للّغة العربيّة؛ فقد استقرّ تأليف الكتب المُتخصّصة في قطاعات اللّغة، كالنّحو والصّرف، والأصوات، والمعاجم، والألفاظ وما يتعلّق بها من مسائل تاريخيّة وخلافيّة.

وصارت المادة اللّغوية محتاجة إلى نظر كلّيّ يتجاوز (أصول النحو) ليصيرَ علمًا لأصول اللغة عامّة، وذلك بمحاكاة علم الفقه، وعلم الكلام، لما عرفا به من تأصيل للظّواهر، واستخلاص للقواعد، وضبط المسائل.

ومن هنا جاءت هذه الدّراسة التي تبحث في مستويات علوم العربيّة مُبيّنة دورها في أداء المعاني، وتبحث في مُستويات اللغة: الصّوتيّة، والنّحويّة، والصّرفية، والمعجمية، ثمّ بيان العلاقة بين مُستويات علم اللّغة.

أولًا: علم الأصوات phonetics

يدرس أصوات اللّغة من ناحية النّطق، وما يرتبط بذلك من سمات صوتيّة (phonetics)، ويمكن أن يوجّه الدّرس الصّوتي إلى قيم الأصوات ووظائفها في اللّغة المعينة، وهذا الضّرب من الدّراسة هو (phonology) أي علم وظائف الأصوات أو علم الأصوات التّنظيمي.

وقد عني النّحاة[2] والقرّاء بدرس "الأصوات" نظرًا وتطبيقًا حتى جاء من صنّف التّجويد في القرن الرّابع، فضمّ المسموع لدى القرّاء إلى القواعد التي استنبطها النّحاة واللّغويون[3]، وقد تعدّدت المجالات التي عرفت الدرس الصوتي، كالبلاغة والإعجاز والطب، إضافة إلى التّجويد الذي حافظ على النّطق السّليم.

ولقد فُتح المجال أمام التّفكير الصّوتي لإدراك أصناف الأصوات، فقُسّمت إلى: صوامت (حروف) وصوائت (حركات).

ويعدّ الخليل بن أحم الفراهيدي مؤسس الدرس الصوتي[4]؛ فقد صنّف الأصوات من حيث النوع ومن حيث المخرج، يقول شارحا: "في العربية تسعة وعشرون حرفا، منها: خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحيانا ومدارج، وأربعة أحرف جوف، وهي: الواو والياء والألف اللّينة والهمزة، وسميت جوفا؛ لأنّها تخرج من الجوف،

---

[1]. ينظر: سعيد الأفغاني: في أصول النحو: ٦-٧.

[2] استطاع ابن جني في القرن الرّابع الهجري أن يجمع التراث الصوتي لمن سبقه من علماء كالخليل وسيبويه في كتابه الذي خصصه للدراسات الصّوتية (سر صناعة الإعراب). وجاء من بعده من حاول تطوير الدراسات الصوتية كابن سينا في: أسباب حدوث الحروف والشفاء.

[3] ينظر للاستزادة: كتاب: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد لغانم قدوري الحمد.

[4] اهتمّ علماء اللغة في العصر الحديث بدراسة علم الأصوات وأفردوا لها كتبا مستقلة، ينظر على سبيل التّمثيل لا الحصر: مناهج البحث في اللغة لتمام حسان، وفي علم اللغة لمحمود السعران، وعلم اللغة العام لكمال بشر، وعلم الأصوات لعبد الصبور شاهين، والبحث اللغوي عند العرب لأحمد مختار عمر.

فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدرج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف" وأضاف "الالف اللينة والواو والياء هوائية أي أنها في الهواء"[1].

ثمّ بيّن أنّ أقصى الحروف مخرجا هو العين، يقول شارحا: " فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء، ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين؛ لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء ولولا هتة في الهاء وقال مرة (ههة)؛ لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من [2]بعض، ثم الخاء والغين في حيز واحد، كلهن حلقية، ثم القاف والكاف لهويتان، والكاف أرفع ثم الجيم والشّين والضّاء في حيز واحد، ثم الصّاد والسّين والزّاء في حيز واحد، ثم الطّاء والدّال والتّاء في حيز واحد، ثم الظاء والذال والثاء في حيز واحد، ثم الراء واللام والنون في حيز واحد، ثم الفاء والباء والميم في حيز واحد، ثم الألف والواو والياء في حيز واحد والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تنسب إليه. فالعين والحاء والخاء والغين حلقية؛ لأن مبدأها من الحلق والقاف والكاف لهويتان؛ لأن مبدأهما من اللهاة، والجيم والشين والضاد شجرية؛ لأن مبدأها من شجر الفم: أي مفرج الفم، والصاد والسين والزاي أسلية؛ لأن مبدأها من أسلة اللسان، وهي مستدق طرف اللسان، والطاء والتاء والدال نطعية؛ لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى، والظاء والذال والثاء لثوية؛ لأن مبدأها من اللثة، والراء واللام والنون ذلقية؛ لأن مبدأها من ذلق اللسان وهو تحديد طرفي ذلق اللسان، والفاء والباء والميم شفوية؛ لأن مبدأها من الشفة، والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد لأنها لا يتعلق بها شيء فنسب كل حرف إلى مدرجته وموضعه الذي يبدأ منه " [3].

ولقد رتّب الخليل حروف العربيّة التي منها أبنية كلام العرب؛ بحسب مخارجها إلى الصّوتية على النّحو الآتي:

"ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م فهذه الحروف الصحاح و ا ي ء" [4]

ولقد اعتمد اللُّغويون حين قاموا بتسمية الحركات القصيرة: فتحة، وضمة، وكسرة، على شكل الشفتين ووضعيهما عند النطق، فالرواية التي تقول: "أنّ أعرابياً قرأ الآية القرآنية الكريمة ﭽ ﭼ ﭻ ﭺ ﭹ ﭸ ﭷ [التوبة: ٣]، بكسر لام (رسوله) بدلاً من ضمها" [5]؛ يفهم منها: أنّ لحن الأعرابي: كان لحناً صوتياً مس حركة اللام، وهي صوت، فنشأ عن هذا خطأ في الدلالة.

---

[1] الفراهيدي: العين: ٥٧/١

[2] السابق: ٥٧/١.

[3] السابق: ٥٨/١

[4] السابق :٥٨/١

[5] ابن جني: الخصائص: ٢/ ٨ والسيوطي: سبب وضع علم العربية: ٣٨

وهو لحن كان حافزاً لأبي الأسود الدُّؤلي (٦٧هـ) على أن يضع نقط الإعراب، ثمّ إنّ قوله للكاتب، وهو يتلو عليه: "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه وان ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف"[١].

وهو ما يدل على أن أبا الأسود لاحظ أثر الشفتين في نوعيّة الصّوت الذي يُسميه المحدثون الصّائت، فالأساس في التّنقيط عضوي فيزيولوجي يعتمده الدّرس الصّوتي الحديث.

ثانيًا: علم الصرف morphology

يبحث في الوحدات الصّرفية morphemes، وأهمّ أمثلتها: الكلمات وأجزاؤها ذات المعاني الصّرفيّة، كالسّوابق واللّواحق.

وأمثلة السّوابق كثيرة جدا، منها: زيادة النون في (عَلِم) لتصبح: نعلمُ: تحوّل الفعل من ماض إلى مضارع بسبب السّابقة (زيادة حرف النون بداية الكلمة) .

ومن أمثلة اللواحق زيادة الواو والنون إلى (معلم) لتصبح: معلمون: تحوّلت الكلمة من مفرد إلى نوع من الجموع المعروفة في العربيّة وهو جمع المذكّر السّالم بسبب اللاحقة (زيادة الواو والنّون في نهاية الكلمة).

فالسّوابق واللّواحق كما هو واضح تساهم في تغيير حالة الكلمة من مخاطب إلى مخاطبين ومن مفرد إلى جمع وهكذا، بحسب السابقة أو اللاحقة التي يتم وضعها للكلمة.

ولقد أدرك علماء الصّرف أن الكلمات العربيّة أغلبها ثلاثيّة الأصول وقابلوها بثلاثة أحرف أصبحت ميزان الكلمة وهي (ف ع ل) [٢].

ويعرض الصّرف: الصّيغ اللّغويةّ ويصنّفها إلى أجناس وأنواع بحسب وظائفها، كأن يقسّمها إلى أجناس الفعل والاسم والأداة مثلا، أو ينظر إليها من حيث التذكير والتأنيث، ومن حيث الإفراد والتثنية والجمع إلى غير ذلك من الصيغ بوصفها صيغًا مفردة.

ويعتني بدراسة التّغير والنّسب والإعلال والإبدال ودور كل موضوع من هذه الموضوعات في إغناء العربيّة وجعلها تتميز على غيرها من اللّغات بخصائصها المرنة وحيوية موضوعاتها[٣].

ويعد الجذر الركيزة الأساسية لعلم الصرف، والجذر هو: " الأحرف المشتركة بين عدد من الكلمات يعتقد أنها تتصل بعضها ببعض اتصالًا اشتقاقيًّا"[٤].

---

[١] ابن النديم: الفهرست ١/ ٥٩ والسيوطي: سبب وضع علم العربية: ٣٩

[٢] ينظر: ابن الحاجب: الشافية في علم التصريف: ٦/١

[٣] ينظر: من المراجع القديمة في علم الصرف على سبيل التمثيل: المفتاح في الصرف لأبي بكر الجرجاني، والممتع في التصريف لابن عصفور، والشافية في علم التصريف لابن الحاجب، وشرح التصريح على التوضيح لخالد الأزهري. ومن المصادر الحديثة: جامع الدروس العربية للغلاييني، وشذا العَرف في فن الصرف للحملاوي، والتطبيق الصرفي لعبده الراجحي، ومعاني الأبنية في العربية لفاضل السامرائي.

[٤] طرزي: الاشتقاق: ٢٤.

ولكل كلمة في اللغة العربية لها مادّة لُغويّة اشْتُقَّت منها تلك الكلمة، فمثال قولنا: استفهام مادّتها اللّغويّة: فهم، وقراءة مادّتها اللّغويّة: قرأ.

وكل زيادة في مبنى الكلمة تزداد بشكل مباشر على الوزن الصّرفي وتؤدي إلى تغيير معنى الكلمة، وكل نقص فيها ينقص من الوزن كذلك، فمثلًا:

لَعِبَ : فَعَل: للدّلالة على القيام بالفعل.

لاعِب: فاعل: على وزن فاعل: للدّلالة على منْ قام بالفعل.

ملعوب: مفعول: على وزن مفعول: للدّلالة على منْ وقع عليه فعل الفاعل.

وتمتاز لُغتنا العربيّة بأنّها لُغة اشتقاقية، ونعني بالاشتقاق: "أخذ لفظ من آخر أصل منه، يشترك معه في الأحرف والأصول وترتيبها، ومن البديهي أن يؤدي هذا الاشتراك اللفظي إلى اشتراك معنوي بين اللّفظين يقرّر نوعه صيغة اللّفظ المُشترك"[1].

ولكل زيادة في المبنى تَعقبه زيادة في المعنى، والمُشتقات في اللّغة العربيّة هي صيغ ومبانٍ تدلّ على معان ودلالات معيّنة، وهي سبعة: اسم الفاعل، واسم المفعول، والصّفة المشبهة، واسم التفضيل، واسم المكان، اسم الآلة وغيرها من الموضوعات الصّرفية.

ثالثًا: علم النّحو syntax

وظيفته: البحث في التّراكيب، وما يرتبط بها من خواص، ولا يقتصر النّحو في العرف على البحث في الإعراب ومشكلاته، وإنّما الموقعيّة والارتباط الداخلي بين الوحدات المكونة للجملة أو العبارة، وما إلى ذلك من مسائل لها علاقة بنظم الكلام وتأليفه.

والنّحو لغة: القصد والاتّجاه، وقد "سُمِّيَ علم النحو بهذا الاسم؛ لأن المتكلم ينحو به منهاج كلام العرب إفرادًا وتركيبًا"[2]

ويهتمّ هذا المستوى بالعلاقة بين الكلمة والأخرى في الجملة من النّاحية النّحوية، إن كانت فاعلًا أم مفعولًا، أم تمييزًا أم حالًا..

والنّحو يقوم: بتمييز الاسم من الفعل من الحرف، وتمييز المعرب من المبني، وتمييز المرفوع من المنصوب، من المخفوض من المجزوم، مع تحديد العوامل المؤثرة فيه.

ويؤدي الإعراب دورا في لُغتنا العربيّة، ويعرّف الإعراب بأنّه: تشكيل نهاية الكلمات، وذلك بوضع حركات الإعراب؛ بحيث تكون في حالة الرّفع: الضمة والواو، أو الألف أو ثبوت النون، وفي حالة النصب: الفتحة والياء، وفي حالة الجر: الجر: الكسرة والياء والفتحة، وترتبط هذه العلامات بالموقع الإعرابي للكلمة.

---

[1] طرزي: الاشتقاق: ٢٨.

[2] الفيومي: المصباح المنير: ٥٩٦/٢.

والنّحو: "سمّي بذلك؛ لأنّه يبيّن المعاني، مأخوذ من قولهم: أعرب الرّجل عن حجّته إذا بينها، ومنه: قوله -صلى الله عليه وسلم-: الثيب يعرب عنها لسانها أي يبيّن ويوضّح" [1].

وللإعراب قيمة مهمة، إذ عن طريقه يتمّ تمييز الفاعل من المفعول به في الجملة، حتى ولو تقدَّم المفعول به على الفاعل، وهو ما يؤثر بدوره على فهم المعنى.

ولشدّة ارتباط الصّرف بالنّحو جمع أكثر العلماء بينهما، وأطلقوا عليهما اسمًا واحدًا هو grammar- أي "قواعد اللّغة" أو "النّحو" على أساس أنّ النّحو لا ينفصل بحال عن الصّرف.

رابعًا: الدّراسات المُعجميّة lexicon studies

مجالها: البحث في المُفردات أو الثّروة اللّفظيّة، فتعنى بجمعها وتصنيفها، ثم شرحها وتفسير معانيها، وتوضيح الكلمة توضيحًا كاملًا بوضعها في جملة أو عبارة للتّنبيه إلى معانيها الخفيّة أو المُتعدّدة بتعدد السّياق والتّراكيب.

إضافة إلى أن المُعجم يعدُّ مرجعًا أساسًا في طريقة الكتابة الإملائية الصّحيحة للكلمات. ويتمثل الجانب النّظري من (علم المعجم) دراسة أصل الدّلالة الحقيقية من تاريخ الاستعمال في اللغة العربيّة، وتوضيح كيف تخرج الكلمة عن معناها الحقيقي الوضعي إلى معان أخرى مجازية.

ولقد حدد العرب مصادر جمع المادة اللغوية التي تتشكل منها معاجم العربية، مبينين أنها جمعت من قبائل عُرفت بفصاحتها وبلاغتها [2].

ويعدّ معجم (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ) أول معجم جمع فيه الفراهيدي معظم ألفاظ اللغة العربية، ولكنه رتبه ترتيبا صوتيا، أي بحسب مخارج الحروف، ثمّ توالت المعاجم بعده تباعا لكل منها منهجه، الذي يسعى صاحبه إلى السّهولة في ترتيب كلماته؛ تيسيرا على المتعلم، كمعجم (لسان العرب) لابن منظور(ت٧١١هـ) [3].

خامسًا: علم المعنى Semantics

يُسمّى: علم المعنى أو علم الدّلالة (السّيمانتك)، ومهمّته: البحث في المعاني ومشكلاتها، والبحث في معاني الألفاظ المُفردة على مستوى المعجمات.

وعند بعض الدّارسين فالسّيمانتك لا يرتبط فقط بالمُعجم، وإنما يرتبط بالنّحو كذلك، ولهذا كان هناك عند هؤلاء ما يُسمّى بالمعنى المُعجمي، وما يُسمّى بالمعنى النّحوي.

---

[1] الأنباري: أسرار العربية: ٤٠.

[2] للتفاصيل حول هذا الموضوع، ينظر: السيوطي: الاقتراح في أصول النحو، ٤٧-٤٨.

[3] للاستزادة حول المعاجم من حيث بدايتها ونشأتها وتطورها وترتيبها، ينظر كتاب: المعجم العربي نشأته وتطوره لحسين نصّار.

وقد تعدّدت وجهات نظر العلماء إلى المعنى من حيث هو معنى كلمة واحدة أو معنى قضية، أو نتيجة منطقية تؤخذ من مقدمات، يقول السيوطي: "إن اللفظ موضوع بإزاء المعنى من حيث هو مع قطع النظر عن كونه ذهنيا أو خارجيا، فإن حصول المعنى في الخارج والذهن من الأوصاف الزائدة على المعنى، واللّفظ إنّما وُضع للمعنى من غير تقييده بوصف زائد. ثمّ إنّ الموضوع له قد لا يوجد إلا في الذّهن فقط كالعلم ونحوه"[1].

وللدّراسات اللّغويّة الحديثة اهتمام خاص بدراسة المعنى[2] يقوّيه ويدعمه أنّ المعنى في نظر هذه الدّراسات صدى من أصداء الاعتراف باللّغة كظاهرة اجتماعيّة، ونتيجة لتشابك العوامل المختلفة في إطار سياق الثّقافة الشعبيّة من عادات وتقاليد وفلكلور وأغان ومناهج عمل وطرق معيشة وغيرها.

فاللّغة أداة اجتماعية يوجدها المجتمع للرّمز إلى عناصر معيشته وطرق سلوكه، فيصبح المعنى مفهومًا في إطار الثقافة المجتمعيّة، مما حدا بالعلماء إلى تشقيق المعنى إلى ثلاثة معان فرعيّة:

أحدها: المعنى الوظيفي، وهو وظيفة الجزء التّحليلي في النّظام أو السّياق التّركيبي.

والثّاني: المعنى المعجمي للكلمة، وهو محتمل خارج السّياق.

والثّالث: المعنى الاجتماعي أو معنى المقام[3].

العلاقة بين مُستويات علّم اللّغة

إنّ مُستويات اللّغة السّابقة لا تنفصل بحال عن بعضها، فلا يجوز الفصل بين فروع اللغة؛ ذلك أنها تلتزم جميعها الحفاظ على اللّغة وصيانة القرآن الكريم، "فعلم الصرف مثلا لا يمكن أن يستقل عن النّحو، وعلم النّحو في أشدّ الحاجة إلى ما يقرره الأول ويسجله من حقائق، وكل منهما يلتمس العون من علم الأصوات من آن إلى آخر"[4].

وهذه الفروع ينتظمها جميعًا ذلك العلم الذي اتفق حديثًا على تسميته (علم اللّغة) أو كما يُنعت أحيانًا (علم اللغة العام general linguistics).

وبرزت معالم النحو عند الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، وتبعه تلميذه سيبويه (ت١٨٠هـ) في كتابه (الكتاب) الذي يعد أعظم أثر باق لعلم النحو عند العرب، ومفهوم النّحو في عصر سيبويه شامل لقواعد الإعراب ونظام الجملة وقواعد التّصريف والاشتقاق، وما يعتري بناء الكلمة من تغييرات لفظية متعددة كالإدغام والإعلام والإبدال ونحوها، وكان يعرض في درس هذه المسائل لشيء من المعارف الصّوتيّة النّظريّة كالحديث عن المخارج والصّفات، والتّطبيقيّة كالإمالة والوقف والإشمام وغيرها.

---

[1] السيوطي: المزهر في علوم اللغة والأدب: ٣٧/١

[2] من الدراسات القديمة على سبيل التمثيل لا الحصر، ينظر: الخصائص لابن جني، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي، والمزهر في علوم اللغة والأدب للسيوطي، الكشاف للزمخشري، والفروق والصناعتين لأبي هلال العسكري. ومن الدراسات الحديثة: مدخل إلى علم اللغة لمحمود فهمي حجازي، وعلم الدلالة بين النظرية والتطبيق لأحمد الكراعين وعلم الدلالة ودلالة الألفاظ لأحمد مختار عمر، مدخل إلى فقه اللغة وفي الدلالة والتطور الدلالي لأحمد قدّور....

[3] ينظر: تمام حسان: اللغة العربية مبناها ومعناها: ٢٧-٢٩.

[4] كمال بشر: دراسات في علم اللغة: ٢٣.

وبذلك فقد تناول سيبويه هذه الفروع أو معظمها (كالأصوات والصّرف والنّحو) في كتابه؛ إذ جاء كتابه مُشتملا على مسائل النحو والصرف وكثير من قضايا الأصوات.

وعليه، فقد نشأ ميل قديم إلى جعل النّحو علمًا شاملا للإعراب والتّصريف والأصوات.

ومن الملاحظ أنّ الزّجاجي (ت٣٣٧هـ) في كتابه (الجُمل)[١] ربط علم الصّرف بالنّحو؛ إذ كان يأتي بالمادة الصّرفيّة ثم يستغلها في معالجة قضايا النّحو؛ فيستهل الزّجاجي كلامه بدراسة التّقسيمات الصّرفيّة المعهودة للأفعال، ثم يتبع ذلك ببحث خواصّ التّراكيب، فيناقش الإعراب وحالاته المختلفة، كما يعرض مثلا لأدوات النّصب والجزم.

ومن الجدير بالذّكر أنه عندما كان يعرض لقضايا الصّرف لخدمة النّحو، إنّما يأتي بالقدر الملائم للمقام ولا يدخل في فضول أو استطراد، واقتصر على المسائل الصّرفيّة التي تخدم النّحو، فجاء كتابه دراسة صرفيّة نحويّة مُتكاملة.

وتناول الزّجاجي الأصوات، درس الأصوات تحت باب الإدغام، يقول في أول هذا الباب: " فأول ذلك معرفة مخارج الحروف ومراتبها وتقاربها وتباينها ومهموسها ومجهورها وسائر ذلك من أنواعها"[٢].

وقد أشار ابن جني (ت٣٩٢هـ) إلى الصّلة بين ما جاء به في (الخصائص) وعلم أصول الفقه، حين رأى البصريّين والكوفيّين في التعرّض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه[٣].

ويصف ابن جني كتابه أنّه كتابٌ في (علم العرب) كما يُقرن ذلك بالسّعي إلى بيان خصائص هذه اللّغة الشّريفة[٤].

ويستخلص من كلام ابن جنّي أنه يجعل كتابه الخصائص كتابًا في أصول النحو، هدفه بيان خصائص العربية، إلا أنه لم يقتصر فيه على أصول النحو، وإنما في اشتراك كل من له نظر في اللّغة من اللّغويين والنّحاة وغيرهم من أصحاب الثّقافة العقليّة في مسائل الكتاب، إذ يقول "إن هذا الكتاب ليس مبنيّا على حديث وجوه الإعراب، وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام، وكيف بدئ وإلام نُحِي، وهو كتاب يتساهم ذوو النظر من المتكلّمين والفقهاء والمُتفلسفين والنّحاة والكُتّاب والمتأدّبين، التأمّل له والبحث عن مستودعه، فقد وجب أن يخاطب كل إنسان منهم بما يعتاده ويأنس به ليكون له سهم منه وحِصّة فيه"[٥]، وهذا ما يجعل كتاب الخصائص داخلا في النّظر الأصولي القريب من فلسفة اللّغة.

---

[١] للاستزادة، ينظر كتاب: الزجاجي: الجمل في النحو.

[٢] الزجاجي، أبو القاسم: الجمل في النحو: ٤٠٩.

[٣] ينظر: ابن جني: الخصائص: ٢/١

[٤] ينظر: السابق، ١/١.

[٥] ابن جني: الخصائص: ٦٧/١.

ومن الملاحظ أنّ ابن فارس (ت٣٩٥هـ) نعت اللّغة العربيّة، فقال: "هذا الكتاب الصّاحبي في فقه اللّغة العربيّة وسنن العرب في كلامها"[١]، بما يشي بالأصول والمسائل والسنن والخصائص، وفي هذا دلالة على أنّ المقصود اللّغة العربية عامّة، لا اللّغة بمعنى المُفردات وحدها. ويصف ابن فارس علم اللّغة بأنّ له فرعا وأصلا، فالأصل "القول على موضوع اللّغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطباتها، وما لها من الافتنان تحقيقا ومجازا"[٢].

ويفهم من كلام ابن فارس عن الفرع أنّه المُفردات ودلالاتها وما يتّصل بها، ويقول في موضع آخر: " بل الواجب علم أصول اللغة والسنن التي بأكثرها نزل القرآن وجاءت السنة"[٣].

وعليه، فإن ابن فارس حذا حذو الفقهاء الذين أنشؤوا علما لأصول الفقه، فأراد أن ينشئ علمًا لأصول اللغة.

أما الثّعالبي (ت٤٢٩هـ) فقد جعل كتابه (فقه اللّغة وسرّ العربيّة) في قسمين؛ أحدهما: فقه اللّغة: الذي تضمّن ثلاثين بابا في كل باب مفردات لغوية تدل على أجزائه وموضوعاته، والآخر: سرّ العربيّة: الذي تضمّن فصولا قصيرة في النّحو والصّرف والبلاغة والأسلوب[٤].

وقد ذكر السّيوطي (ت٩١١هـ) في كتابه (الاقتراح) أنه استمدّ كثيرًا من كتاب الخصائص لابن جني، فإنه وضعه في هذا المعنى وسمّاه أصول النّحو.

وقد دلّ مضمون كتاب السّيوطي (المُزهر في علوم اللّغة وأنواعها) على ترتيب مماثل لعلوم الحديث، من أبواب فيه تُعنون بـ الثقات والحفاظ والضعفاء والإمساك في الرواية عند الطعن في السنن إلخ.

وكان السّيوطي كثير النّقل عن ابن فارس وابن جني في (الصاحبي)، و(الخصائص) بما يتّصل بتاريخ الأمّة ولهجاتها وتطوّرها، وأصل الدّلالة، وخصائص اللّغة، وجوانب أخرى كالمفردات لفظًا ومعنى، كما ينقل من مصادر لُغويّة كالمعاجم وكتب الأبنية، وأنواع الدّلالة ككتب الأضداد والمُشترك والرّسائل اللّغويّة، وأخرى نحويّة وصرفيّة مُتنوعة، وينقل أيضا من مصادر الفقه والأصول والتّفسير وكتب الحديث والتّراجم والتّاريخ.

ومن الواضح صلة الكتب المتقدمة جميعها بالمُفردات ودلالاتها، لإبراز الخصائص الحسنة في لُغة العرب ونُطقهم؛ بما يعلي من الفصحى ويمجّد العربيّة في فصاحتها ومعجمها، وصلتها أيضًا بخصائص اللّغة، ونقلها من مصادر الفقه والأصول ومحاكاتها.

---

[١] ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة: ٢٩.

[٢] السابق: ٢٩-٣٠.

[٣] السابق نفسه: ٦٤.

[٤] للتفاصيل ينظر: كتاب: الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية.

الخاتمة

يُعنى علم اللّغة بالدّراسة العامّة للّغة بوصفها ظاهرة مُستقلة، لا تتعلق إلا بالمُجتمع، وتشمل بحوثه: جوانب اللّغة في: أصواتها وصرفها ونحوها ومعجمها ودلالتها، ويتوسّل بمناهج متعددة كالمنهج التّاريخي، والمُقارن، والوصفي، والتّقاربي.

ويهدف علم اللّغة إلى الكشف عن الكلّيّات التي يشترك بها اللّسان البشري بوصفه ظاهرة إنسانيّة عامّة.

ولقد تناول علماء العربية في بحوثهم كل فروع أو مستويات أو جوانب متعدّدة لعلم واحد، تمثّل جوانب هذا العلم وفروعه، وتحدد ميادينه المُختلفة، يضمّها جميعها بوصفها مراحل أو خطوات ترمي إلى غرض مشترك بينها، أطلق عليها علماء العربية أسماء مختلفة؛ علوم العربيّة، أو علوم اللّسان العربي، أو علوم الأدب...إلخ.، وإن اختلفوا في مناهج بحثها وطرائق مناقشتها.

ويبدو أن هناك علاقة وارتباطًا بين مستويات اللغة المختلفة أو مسائل اللغة المختلفة في عمومها، فلا يجوز الفصل بينها؛ إذ تنضوي جميعها تحت موضوع رئيسي واحد يوحي بوحدتها وانتظامها.

ولقد اعتمدت المصنّفات القديمة في فروع اللّغة على النّظر في الأصول، والخصائص، ومحاكاة علم الفقه في المسائل اللّغوية، وضبطها.

المصادر والمراجع

- ابن الحاجب، جمال الدين: الشافية في علم التصريف. تحقيق: حسن أحمد العثمان. المكتبة المكية: مكة: ١٩٩٥م، ط ١.
- ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست. دار المعرفة: بيروت: ١٩٧٨م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، د.ت.
- ابن فارس، أحمد: الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق: مصطفى شويمي، مؤسسة بدران، بيروت، ١٩٦٣م.
- الأنباري، الإمام أبو البركات: أسرار العربية. تحقيق: فخر صالح قدارة. دار الجيل: بيروت: ١٩٩٥م، ط١.
- تمام حسان: اللغة العربية مبناها ومعناها، دار الثقافة، المغرب، ١٩٩٤م.
- الثعالبي، أبو منصور: فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: مصطفى السقا؛ وآخرون، البابلي الحلبي، مصر، ١٩٧٤م.
- الزجاجي، أبو القاسم: الجمل في النحو، تحقيق: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٨٨م.
- سعيد الأفغاني: في أصول النحو، جامعة دمشق، ط٣، ١٩٦٤م.
- السيوطي، جلال الدين: الاقتراح في أصول النحو، ضبطه وعلق عليه: عبد الحكيم عطية، راجعه وقدم له: علاء الدين عطية، دار البيروتي: ٢٠٠٦م، ط٢.
- السيوطي، جلال الدين: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور. دار الكتب العلمية: بيروت: ١٩٩٨م، ط١
- السيوطي، جلال الدين: سبب وضع علم العربية. تحقيق: مروان العطية. دار الهجرة: بيروت- دمشق: ١٩٨٨م ط١.
- طرزي، فؤاد حنا: الاشتقاق، مكتبة لبنان ناشرون: ، ط١، ٢٠٠٥ م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال ، د.ت.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. المكتبة العلمية: بيروت: د.ت.
- كمال بشر: دراسات في علم اللغة، دار المعارف، مصر، ط٩، ١٩٨٦م.